٩٦/٦٦٦٢

مجلة الدراسات العربية

دورية علمية محكمة

تصدر عن كلية دار العلوم – جامعة المنيا

المشرف العام

أ.د/ عبد المنعم السيد أحمد

عميد الكلية

رئيس التحرير

أ.د/ سعيد الطواب محمد

وكيل الكلية للدراسات العليا

نائب رئيس التحرير

أ.د/ منير عبد المجيد فوزي

وكيل الكلية لشئون التعليم والطلاب

مدير التحرير

د. السيد محمد سيد

سكرتارية تنفيذية

أ/ وائل نبيل أنس

العدد الثامن والعشرين – يونيو ٢٠١٣م (المجلد السابع)

أثر كثرة الاستعمال في كتاب روح المعاني

دكتور/ مهدي بن علي القرني
أستاذ النحو والصرف المشارك
جامعة الملك خالد

تمهيد :

ذكر علماء اللغة أن كثرة الاستعمال في العلل اللغوية المعتبرة، بل ذكر السيوطي في اقتراحه أن كثرة الاستعمال مقدّم على قوة القياس، فقال : "قد يكون الشيء كثيرًا في استعمال العرب الفصحاء الموثوق بعربيتهم، وهو مع كثرته في الاستعمال أضعف في القياس في غيره، وإذا تعارضت كثرة الاستعمال مع قوة القياس كان استعمال ما كثر استعماله أولى مما قوى قياسه".(١)

وقد ساق السيوطي في هذا الأمر مقالاً عن ابن جني وهو تقديمه "ما" النافية المجازية على "ما" التميمية، ولغة بني تميم أقوى قياسًا، لأن "ما" فقدت شرط العمل، وهو : الاختصاص، ولذلك قال سيبويه عن إهمال (ما) في لغة بني تميم قال : وهو القياس، فهي حرف غير مختص، فكان القياس ألا تعمل، إلا أن قوة القياس هنا معارضة لكثرة المسموع، إذ كثر في الكلام الفصيح إعمال "ما" عمل "ليس" وعدت هذه اللغة العليا؛ لأن القرآن نزل بها، ومنه قوله تعالى : "ما هذا بشرًا" وقوله تعالى: "ما هنّ أمهاتهم".

ولما تعارضت قوة القياس مع كثرة الاستعمال كانت كثرة الاستعمال هي المقدمة، وكان على المتكلم أن يستعمل في كلامه ما كثر استعماله في كلام الفصحاء.(٢)

---

(١) الاقتراح.

(٢) ينظر : أصول النحو : ٣٣١.

وقد عد بعض العلماء كثرة الاستعمال معيارًا لمعرفة الأصل في التصريفات المتعددة، فاللفظ الأكثر استعمالاً أو تصرفًا هو المبدل منه، وهو الأصل، والأقل استعمالاً أو تصرفًا هو البدل، وهو الفرع، فإذا تساويا في ذلك فهما جميعًا أصلان.

بل وصل الأمر بهذه العلة (كثرة الاستعمال) أن تكون علة قوية في الخروج على القياس، ومن ذلك ما ذكره أبو حيان في قوله تعالى "وإن تك حسنة" قال : "وحذف هذه النون شاذ في القياس لأنها في نفس الكلمة لكن سوغه كثرة الاستعمال".(١)

ومن الألفاظ التي أشار العلماء إلى تغييرها بناءً على كثرة الاستعمال : "أيشٍ" والأصل : أي شيء، وقوله : عِم صباحًا، والأصل فيه : أنعم صباحًا.

وقولهم "ويلمّه" والأصل فيه : ويل أمه، إلا أنهم حذفوا في هذه المواضع لكثرة الاستعمال. (٢)

ولعل كثرة الاستعمال أصبح لدى كثير من النحاة من العلل المفسّرة لبعض الظواهر اللغوية بصورة كبيرة، وكثر استخدام علة كثرة الاستعمال في تفسير الظواهر اللغوية التي لم يجد لها تفسيراً غير هذا، ومن أمثلة ذلك :

- لا يجوز حذف الفعل إذا كان يتعدى بحرف، فكيف جاز في القسم أن تقول : بالله وأنت تقدر فعلاً يتعدى بالباء، والجواب على هذا عندهم : إنما ساغ ذلك في القسم لأنه كثير الدور في كلامهم، ومع ذلك فإنه يحتاج إلى جواب، فصار افتقاره إلى الجواب كالعوض في حذف الفعل مع كثرة الاستعمال. (٣)
- وأما اختصاص (با) باسم الله تعالى فجواز دخول (يا) عليها فلاجتماع أشياء فيه ليست موجودة في غيره، أحدها كثرة الاستعمال. (٤)

ومن الأمور المهمة في هذا الباب أن ابن جني عدّ علة كثرة الاستعمال من أسباب البناء في الكلمات إذ يقول : "لأن الإعراب هو الأصل في الأسماء فبناؤها عارض في

---

(١)همع الهوامع : ٤٤٥/١.

(٢)ينظر : الإنصاف في مسائل الخلاف : ٤٣٠/٢.

(٣)ينظر : علل النحو : ٢١٣.

(٤)ينظر : علل النحو : ٣٤٢.

الرتبة والتقدير، وقد جعل علة بنائها كثرة استعمالها، وذلك لأنها صارت لكثرة استعمالها قوالب الكلام، فاقتضى ذلك أن تبقى على صورة واحدة، فكانت مبنية، ولم يرض هذا الكلام ابن الطيب في شرح الاقتراح فاعترض بأن هذا يقتضي بأن يكون كثرة الاستعمال من أسباب البناء ولا قائل به".[1]

كثرة الاستعمال عند الألوسي: تعدد استخدام الألوسي لعلة كثرة الاستعمال ويمكن تصنيف هذا الاستخدام إلى عدد من الحقائق على النحو الآتي :

١- كثرة الاستعمال دليل على الحقيقة لا المجاز الحقيقة : ومن أمثلة ذلك :

"وأما قوله تعالى: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ [الملك: ١٣] الآية فلا حجة فيه لأن الإسرار خلاف الجهر وكلاهما عبارة عن أن يكون أرفع صوتا من الآخر- وأما بيت الأخطل فالمشهور أن البيان- وبتقدير أن يكون الكلام فهو مجاز عن مادته وهو التصورات المصححة له إذ من لم يتصور ما يقول لا يوجد كلاما ثم هو مبالغة من هذا الشاعر بترجيح الفؤاد على اللسان انتهى وفيه ما لا يخفى.

أما أولا فلأن ما ادعاه من التبادر إنما هو لكثرة استعماله في اللفظي لمسيس الحاجة إليه لا لكونه الموضوع له خاصة بدليل استعماله لغة وعرفا في النفسي والأصل في الإطلاق الحقيقة- وقوله والأصل عدم الاشتراك قلنا: نعم إن أردت به الاشتراك اللفظي ونحن لا ندعيه وإنما ندعي الاشتراك المعنوي وذلك أن الكلام في اللغة بنقل النحويين ما يتكلم به قليلا كان أو كثيرا حقيقة أو حكما".[2]

٢- كثرة الاستعمال يفسّر المعنى ، ومن أمثلة ذلك :

"و«الملائكة» جمع ملأك على وزن شمائل وشمأل وهو مقلوب مالك صفة مشبهة عند الكسائي، وهو مختار الجمهور من الألوكة وهي الرسالة، فهم رسل إلى الناس وكالرسل إليهم، وقيل: لا قلب فابن كيسان إلى أنه فعال من الملك بزيادة الهمزة لأنه مالك ما جعله الله تعالى إليه أو لقوته فإن «م ل ك» يدور مع القوة والشدة يقال: ملكت العجين شددت عجنه، وهو اشتقاق بعيد، وفعال قليل، وأبو عبيدة إلى أنه مفعل

([1])الخصائص : ٣٣/٢.

([2]) روح المعاني : ١٦/١.

من لاك إذا أرسل مصدر ميمي بمعنى المفعول أو اسم مكان على المبالغة، وهو اشتقاق بعيد أيضا، ولم يشتهر لاك، وكثر في الاستعمال الكني إليه- أي كن لي رسولا- ولم يجيء سوى هذه الصيغة فاعتبره مهموز العين، وإن أصله ألا كنى، وبعض جعله أجوف من لاك يلوك، والتاء لتأنيث الجمع، وقيل: للمبالغة ولم يجعل لتأنيث اللفظ كالظلمة لاعتبارهم التأنيث المعنوي في كل جمع حيث قالوا: كل جمع مؤنث بتأويل الجماعة".(١)

وقوله حين يشرح قوله تعالى (أينما تولوا فثم وجه الله) : "وجوّز أن تكون «أينما» مفعول تُولُّوا بمعنى الجهة، فقد شاع في الاستعمال «أينما» توجهوا، بمعنى أي جهة توجهوا".(٢)

وقوله : "يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ استئناف لبيان سبب تيمم الخبيث في الإنفاق وتوهين شأنه والوعد في أصل وضعه لغة شائع في الخير والشر، وأما في الاستعمال الشائع فالوعد في الخير والإيعاد في الشر حتى يحملوا خلافه على المجاز والتهكم، وقد استعمل هنا في الشر نظرا إلى أصل الوضع لأن الفقر مما يراه الإنسان شرا".(٣)

وقوله :" وَكانَ الْإِنْسانُ بحسب جبلته أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل، وهو كما قال الراغب وغيره المنازعة بمفاوضة القول، والأليق بالمقام أن يراد به هنا الخصومة بالباطل والمماراة وهو الأكثر في الاستعمال".(٤)

٣- كثرة الاستعمال تؤدي إلى الحذف والتخفيف : ومن أمثلة ذلك :

قوله : "هذا واعلم أن لفظ ابْنُ في الآية يكتب بغير همزة بناء على وقوعه صفة بينعلمين إذ القاعدة أنه متى وقع كذلك لم تكتب همزته بل تحذف في الخط تبعا لحذفها في اللفظ لكثرة استعماله ".(٥)

---

(١) روح المعاني : ١/٢٢٠.

(٢) روح المعاني : ١/٣٦٤.

(٣) المصدر نفسه : ٢/٣٩.

(٤) نفسه : ٢/٢٨٣.

(٥) نفسه : ٢/١٥٥، ١٥٦.

قوله : "وتأول الكوفيون كما في المطول الآية بأنها بتقدير كان أي ربما كان يود الذين كفروا فحذف لكثرة استعمال كان بعد ربما، وضعف ذلك أبو حيان بأن هذا ليس من مواضع إضمار كان".[1]

قوله : "وأصله سمو حذفت الواو تخفيفا لكثرة الاستعمال ولتعاقب الحركات".[2]

وقوله : " وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما الضمير المجرور للجنة على حذف مضاف أي من مطاعمها من ثمار وغيرها فلم يحظر عليهما شيئا إلا ما سيأتي، وأصل كُلا أأكلا بهمزتين الأولى للوصل، والثانية فاء الكلمة فحذفت الثانية لاجتماع المثلين حذف شذوذ وأتبعت بالأولى لفوات الغرض، وقيل: حذفا معا لكثرة الاستعمال".[3]

وقوله : "وقرأ الزهري وغيره «فلا خوف» بالفتح، وابن محيصن باختلاف عنه بالرفع من غير تنوين، وكأنه حذف لنية الإضافة، أو لكثرة الاستعمال".[4]

وقوله حين يتحدث عن كلمة (أشياء) : "وجعل مكي تصريفه كمذهب الأخفش إذا بدل الهمزة ياء ثم حذفت إحدى الياءين وحسن حذفها من الجمع حذفها من المفرد لكثرة الاستعمال وعدم الصرف لهمزة التأنيث الممدودة".[5]

وقوله : "وفي القاموس أنه يقال: لا جَرَمَ ولاذا جرم ولا أن ذا جرم ولا عن ذا جرم ولا جرم ككرم، ولا جَرَمَ بالضم أي لا بد أو حقا أو لا محالة وهذا أصله ثم كثر حتى تحول إلى معنى القسم فلذلك يجاب عنه باللام، فيقال:

لا جَرَمَ لآتينك انتهى، وفيه مخالفة لما نقله السيرافي عن الزجاج، وما ذكره من لا جَرَمَ ككرم رواه بعضهم عن أبي عمرو في الآية، ومن لا ذا جرم حكاه الفراء عن بني عامر، وحكي أيضا لا جَرَمَ بالضم عن أناس من العرب، ولكن قال الشهاب:

---

(1) نفسه : ٢٥٤/٧.

(2) نفسه : ٥٤/١.

(3) نفسه : ٢٣٥/١.

(4) روح المعاني : ٢٤١/١.

(5) المصدر نفسه : ٣٨/٤.

إن في ثبوت هذه اللغة في فصيح كلامهم ترددا، وجزم فيها يحتمل أن يكون اسما وأن يكون فعلا مجهولا سكن للتخفيف، وحكى بعضهم لا ذو جرم ولا عن جرم ولا جر بحذف الميم لكثرة الاستعمال كما حذفت الفاء من سوف لذلك في قولهم: سو ترى".[1]

وقوله : "ومنه قوله تعالى: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ إلى قوله سبحانه: تُؤْمِنُونَ [الصف: ١٠، ١١] إذ المراد منه آمنوا، والقول بأنه لما كان بمعنى الأمر بني على حذف النون كما بني الاسم المتمكن في النداء على الضم في نحو يا زيد لما شبه بقبل وبعد ما لم يبن إنما لوحظ فيه لفظه مما لا يكاد يلتفت إليه، وذهب الكسائي.

والزجاج وجماعة إلى أنه مقول القول وهو مجزوم بلام أمر مقدرة أي ليقيموا وينفقوا على حد قول الأعشى:

محمد تفد نفسك كل نفس ... إذا ما خفت من أمر تبالا

وأنت تعلم أن إضمار الجازم أضعف من إضمار الجار إلا أن تقدم قُلْ نائب منابه كما أن كثرة الاستعمال في أمر المخاطب ينوب مناب ذلك. والشيء إذا كثر في موضع أو تأكد الدلالة عليه جاز حذفه، منه حذف الجار من أني إذا كانت بمعنى من أين".[2]

وقوله : " وقيل يجوز مع ذلك حمل العباد على العموم ويكون المعنى ولا يرضى لجميع عباده الكفر بل يرضاه ويريده لبعضه نظير قوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ [الأنعام: ١٠٣] على قول، ولعلامة الأعصار صاحب الكشف تحقيق نفيس في هذا المقام لم أره لغيره من العلماء الأعلام وهو أن الرضا يقابل السخط وقد يستعمل بعن والباء ويعدى بنفسه فإذا قلت: رضيت عن فلان فإنما يدخل على العين لا المعنى ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا وفي مقابلة سخطت عليه وبينهما فرقان أنك إذا قلت: رضيت عن فلان بإحسانه لم يتعيّن الباء للسببية بل جاز أن يكون صلة

---

(١) نفسه : ٦/٢٣٤.

(٢) روح المعاني : ٧/٢٠٨.

مثله في رضيت بقضاء الله تعالى وإذا قلت: سخطت عليه بإساءته تعين السببية فكان الأصل هاهنا ذكر الصلة لكنه كثر الحذف في الاستعمال بخلافه ثمت إذ لا حذف".(١)

٤- **كثرة الاستعمال تؤدي إلى تغيرات في الخط ، ومن أمثلة ذلك :**

قوله : "فيقال- اقرأ اسم ربك- وظاهره أن الذي منع من الإسقاط في الآية إمكان حذف الباء فقط وهو مخالف لما ذكره الدماميني من أنه لا بد للحذف من أمرين عدم ذكر المتعلق وإضافة لفظ اسم للجلالة وكلاهما منتف في الآية وهل يشترط تمام البسملة فيه؟ فيه تردد وظاهر كلام التسهيل اشتراطه. وقيل لا حذف فيه والباء داخلة على سم أحد اللغات السابقة ثم سكنت السين هربا من توالي كسرتين أو انتقاله من كسرة لضمة وهو مع غرابته بعيد، وعندي أن هذا رسم عثماني وهو مما لا يكاد يعرف السر فيه أرباب الرسوم والكثير من عللهم غير مطردة وبذلك اعتذر البعض(٢)عن عدم حذف ألف الله مع كثرة استعماله واستغنى به عن الجواب بشدة الامتزاج وبأنها عوض".

وقوله في قوله تعالى (ويكأن الله يبسط الرزق) : "والقياس كتابتها مفصولة وكتبت متصلة بالكاف لكثرة الاستعمال وقد كتبت على القياس في قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وي كأن من يكن له نشب يح ... بب ومن يفتقر يعش عيش ضر

وقال الأخفش: الكاف متصلة بها وهي اسم فعل بمعنى أعجب والكاف حرف خطاب لا موضع لها من الإعراب كما قالوا في ذلك ونحوه، والوقف على ويك، وعلى ذلك جاء قول عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم".(٣)

---

(١) المصدر نفسه: ١٢/٢٣٢.

(٢) نفسه : ١/٥٦.

(٣) روح المعاني : ١٠/٣٢٩.

٥- كثرة الاستعمال تؤدي إلى حذف المصدر وإنابة الصفة مقامه ، ومن أمثلة ذلك:

قوله : " وقرأ أبو حيوة «وقّاهم» بتشديد القاف كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً أي يقال لهم كُلُوا وَاشْرَبُوا أكلا وشربا هنيئا، أو طعاما وشرابا هنيئا، فالكلام بتقدير القول: وهَنِيئاً نصب على المصدرية لأنه صفة مصدر. أو على أنه مفعول به، وأيا ما كان فقد تنازعه الفعلان، والهنيء كل ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقب وخامه بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي بسببه أو بمقابلته والباء عليهما متعلق- بكلوا واشربوا، على التنازع، وجوز الزمخشري كونها زائدة وما بعدها فاعل هنيئا كما في قول كثير:

هنيئا مريئا غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت[١]

فإن ما فيه فاعل هنيئا على أنه صفة في الأصل بمعنى المصدر المحذوف فعله وجوبا لكثرة الاستعمال كأنه قيل: هنؤ لعزة المستحل من أعراضنا".

٦- كثرة الاستعمال تسخدم دليلا على قضية نحوية ، ومن أمثلة ذلك :

قوله : "وَعَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ عطف على قوله تعالى: «وعلى المولود له» إلخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض والمراد بالوارث وارث الولد فإنه يجب عليه مثل ما وجب على الأب من الرزق والكسوة بالمعروف إن لم يكن للولد مال وهو التفسير المأثور عن عمر وابن عباس وقتادة ومجاهد وعطاء وإبراهيم والشعبي وعبد الله بن عتبة وخلق كثير، ويؤيده أن أل كالعوض من المضاف إليه الضمير ورجوع الضمير لأقرب مذكور وهو الأكثر في الاستعمال".[٢]

وقوله : "قال ابن جني: وللترخيم في هذا الموضع سر وذلك أنهم لعظم ما هم فيه ضعفت قواهم وذلت أنفسهم فكان هذا من موضع الاختصار ضرورة وبهذا يجاب عن قول ابن عباس وقد حكيت له القراءة به على اللغة الأولى: ما أشغل أهل النار عن الترخيم مشيرا بذلك إلى إنكارها فإن ما للتعجب وفيها معنى الصد يعني أنهم في حالة تشغلهم عن الالتفات إلى الترخيم وترك النداء على الوجه الأكثر في الاستعمال،

---

(١) المصدر نفسه : ٣٢/١٤.

(٢) نفسه : ٥٤٠/١.

وحاصل الجواب أن هذا الترخيم لم يصدر عنهم لقصد التصرف في الكلام والتفنن فيه كما في قوله:

يحيي رفات العظام بالية ... والحق يا مال غير ما تصف".[1]

وقوله : "وتُقَدِّمُوا من قدم المتعدي، ومعناه جعل الشيء قادما أي متقدما على غيره، وكان مقتضاه أن يتعدى إلىمفعولين لكن الأكثر في الاستعمال تعديته إلى الثاني بعلى تقول: قدمت فلانا على فلان".[2]

٧- كثرة الاستعمال تجعل الشيء الفرع كالأصل ، ومن أمثلة ذلك :

قوله : "فلا يحسن- أينما كنتم يدرككم الموت- إلا على حكاية الماضي وقصد الاستحضار فيه نظر، نعم يرد عليه أن فيه تعسفا إذا لتوهم- كما قال ابن المنير- أن يكون ما يتوهم هو الأصل، أو مما كثر في الاستعمال حتى صار كالأصل".[3]

٨- كثرة الاستعمال تجعل اسم الإشارة يعبر به عن أشياء متعددة ، ومن أمثلة ذلك:

قوله : " وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ بأن غطى عليها بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم أصلا. وقيل: يجوز أن يكون الختم عطفا تفسيريا للأخذ فإن البصر والسمع طريقان للقلب منهما يرد ما يرده من المدركات فأخذهما سد لبابه بالكلية وهو السر في تقديم أخذهما على الختم عليها. واعترض بأن من المدركات ما لا يتوقف على السمع والبصر، ولهذا قال غير واحد بوجوب الإيمان بالله تعالى على من ولد أعمى أصم وبلغ سن التكليف، وقيل في التقديم: إنه من باب تقديم ما يتعلق بالظاهر على ما يتعلق بالباطن. ووجه تقديم السمع وافراده قد تقدمت الإشارة إليه مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أي بذلك على أن الضمير مستعار لاسم الإشارة المفرد لأنه الذي كثر في الاستعمال التعبير به عن أشياء عدة".[4]

---

(1) نفسه : ١٣/١٠٢.

(2) روح المعاني : ١٣/٢٨٥.

(3) المصدر نفسه : ٣/٨٥.

(4) نفسه : ٤/١٤٤.

٩- كثرة الاستعمال تفسر سبب اختيار حرف النداء (يا) دون غيره ، ومن أمثلة ذلك:

قوله : "وزعم بعضهم أن الأرض والسماء أعطيتا ما يعقلان به الأمر فقيل لهما حقيقة ما قيل، وأن القائل بُعْداً نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر ولا أثر فيه يعول عليه، والكلام على الأول أبلغ، وأما النظر فيها من جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها فذلك أنه اختير يا دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت".(١)

١٠- كثرة الاستعمال تؤدي إلى اعتبار التأنيث أكثر من التذكير ، ومن أمثلة ذلك :

قوله : "وكان الظاهر السماء منفطرة بتأنيث الخبر لأن المشهور أن السماءمؤنثة لكن اعتبر إجراء ذلك على موصوف مذكر فذكر أي شيء منفطر به والنكتة فيه التنبيه على أنه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبق منها إلّا ما يعبر عنه بالشيء. وقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة والكسائي وتبعهم منذر بن سعيد التذكير لتأويل السماء بالسقف وكان النكتة فيه تذكير معنى السقفية والإضلال ليكون أمر الانفطار أدهش وأهول وقال أبو عليّ الفارسي التقدير ذات انفطار كقولهم امرأة مرضع أي ذات رضاع فجرى على طريق النسب وحكي عنه أيضا أن هذا من باب الجراد المنتشر والشجر الأخضر وأعجاز نخل منقعر يعني أن السماء من باب اسم الجنس الذي بينه وبين مفرده تاء التأنيث وأن مفرده سماءة واسم الجنس يجوز فيه التذكير والتأنيث فجاء منفطر على التذكير وقال الفراء السماء يعني المظلة تذكر وتؤنث فجاء مُنْفَطِرٌ على التذكير ومنه قوله الشاعر:

فلو رفع السماء إليه قوما ... لحقنا بالسماء وبالسحاب

---

(١) نفسه : ٦/٢٦٣.

وعليه لا حاجة إلى التأويل وإنما تطلب نكتة اعتبار التذكير مع أن الأكثر في الاستعمال اعتبار التأنيث ولعلها ظاهرة لمن له أدنى فهم وحمل الباء في بِهِ على الآلة هو الأوفق لتهويل أمر ذلك اليوم".[1]

١١- كثرة الاستعمال في التعدي واللزوم ، ومن أمثلة ذلك :

قوله : "وذهب غير واحد إلى أنها للتعليل ابتدائية فإن السحاب كالمبدأ الفاعل للإنزال وتعقب بأن ورود من كذلك قليل وعن أبي الحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة أيضا أنها السماوات، وتعقب بأن السماء لا ينزل منها الماء بالعصر فقيل في تأويله أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب فكأن السماوات يعصرن أي يحملن على عصر الرياح السحاب، ويمكن منه وتعقب بأنه مع بعده إنما يتم لو جاء المعصر بمعنى العاصر أي الحامل على العصر، ولو قيل المراد بالمعصر الذي حان له أن يعصل كان تكلفا على تكلف والذي في الكشف أن الهمزة على التأويل المذكور للتعدية فتدبر ولا تغفل ماءً ثَجَّاجاً أي منصبا بكثرة، يقال: ثج الماء إذا سال بكثرة، وثجه أي أساله فثجّ. ورد لازما ومتعديا واختير جعل ما في النظم الكريم من اللازم لأنه الأكثر في الاستعمال".[2]

---

(١) روح المعاني : ١٥/١٢١، ١٢٢.

(٢) نفسه : ١٥/٢١٠.

الخاتمة:

كثرة الاستعمال من العلل اللغوية التي ظهرت لدى بعض اللغويين، وقد كان ظهورها لدى أكثرهم تفسيرًا لبعض الظواهر اللغوية، وإن ظهرت هذه اللغة وفشت وفسّر بها بعض اللغويين بعض الظواهر اللغوية فإنها تدل دلالة قطعية أن اللغة العربية تنحو منحى الإيجاز سواء أكان ذلك في اللفظ أم في الكتابة.

وقد ظهر في تعارض القياس مع كثرة الاستعمال فقدّم ما كثر استعماله على القياس، وكان على المتكلم أن يستعمل في كلامه ما كثر استعماله في كلام الفصحاء، وهذا يدل دلالة قطعية على أن اللغة هدفها التواصل لا الإغراق، ولهذا فإن استخدام ما كثر استعماله يقوي جانب التواصل بصورة أكبر.

والبحث أكّد ما ذهب إليه بعض العلماء من أن كثرة الاستعمال معيارٌ لمعرفة الأصل في التصريفات المتعددة، فاللفظ الأكثر استعمالاً وتقدمًا هو المبدل منه، وهو الأصل، والأقل استعمالاً أو تصرفًا هو البدل، وهو الفرع، فإذا تساويا في ذلك فهما جميعًا أصلان.

والبحث أفاد إفادة جديدة حين ذكر أن كثرة الاستعمال يدل مع الحقيقة لا مع المجاز.

والبحث أكد ما ذهب إليه العلماء أن كثرة الاستعمال تؤدي إلى الحذف والتحقيق، وقد ذكر البحث بعض الأمثلة في ذلك.

كما أكّد البحث ما ذهب إليه العلماء من أن كثرة الاستعمال تؤدي إلى تغييرات في الخط.

لكنه يجدر الإشارة إلى أن هذه العلّة لا يصح أن تبقى مستمرة وإنما تفسر الظواهر اللغوية في كلام الفصحاء؛ لا أن قياس عليها قياسًا مطرّدًا.

المصادر:

- الأصول في النحو. أبو بكر محمد بن سهل بن السراج (ت: ٣١٦هـ). الطبعة الثالثة تحقيق: عبد الحسين الفتلي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف. أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى (ت: ٥٧٧هـ). تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد ,بيروت دار الفكر.
- الخصائص. أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ). المحقق : محمد علي النجار . بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٩٠م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ). تحقيق: علي عبد الباري عطية.دار الكتب العلمية : بيروت. الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
- علل النحو . محمد بن عبد الله الوراق دار النشر : مكتبة الرشد - الرياض / السعودية - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م الطبعة : الأولى.